خلافة المعتصم بالله (218 – 228 هـ)

بويع لأبي اسحق محمد بن هارون الرشيد بطرطوس يوم وفاة أخيه المأمون في التاسع عشر من شهر رجب سنة 218هـ وقد أسهب المؤرخون في الحديث عن شجاعته وشدة بأسه وكرم اخلاقه وحزمه فوصفه المسعودي بأنه (الرجل الذي لا يقاس الرجال قوة بدون وشدة بأس وشجاعة قلب وكرم اخلاق) أما الاربلي فيقول عنه أنه من (عظماء الموصوفين بالحزم ذوي المناقب االوافرة والفتوح الظاهرة والفضائل الجمة والهمة العالية جدا في أعزاز الدين) والواقع أن المعتصم كان عسكريا بطبعه ، مدربا في الحرب ، يعتز بقوته الجسمية الا أن ثقافته كانت محدودة، فقد ذكر ابن خلكان أنه كان ضعيف الكتابة ، وأنه لم يكن سياسيا بارعا .

وتتفق اغلب المصادر على أن العباس كان مع ابيه بطرطوس لكنه لم يكن مع المعتصم في معسكر واحد فلما توفي المأمون ابدى الجند معارضتهم وارادوا مبايعة العباس ، غير أن الاخير بادر الى مبايعة عمه المعتصم حسما للفتنة واحتراما لوصية ابيه المأمون.

السياسة الداخلية :

أ- ظهور الترك في الجيش :

من أهم ما يميز عصر المعتصم بالله والعصر العباسي الأول بوجه عام ظهور الترك على ساحة الاحداث العسكرية والسياسية .

على أن ظهور الترك في خلافة المعتصم لم يكن فجائيا او مصطنعا ، فقد سبق للعرب أن احتكوا بهم من خلال فتوحاتهم في خراسان وبلاد ما وراء النهر ، طيلة العصر الراشدي والأموي ، ثم بدأ تدفقهم على شكل افراد او جماعات في البلاط والادارة بعد قيام الخلافة العباسية وكانت مصادر وجودهم متنوعة كأسرى حرب أو عن طريق الشراء او الهجرة التي أدت الى دخول الكثير من الاتراك واستقرارهم داخل الدولة العربية الاسلامية وأندماجهم في أطار المجتمع الاسلامي والثقافة العربية وقد اشارت المصادر التاريخية الى وجود الاتراك في البلاط العباسي في خلافة أبي جعفر المنصور ، فقد ذكر المؤرخون أن المنصور يشرف بنفسه على تدريب الغلمان والمماليك على استعمال السيف والرمي بالنبال والتدريب على القتال وذكر البلاذري أنه أرسل الحجاج بن ارطاة مع المهدي الى خراسان ، فقط بسبعين مملوكا ، وقد اشارت الروايات التي اوردها الطبري واليعقوبي والجهشياري وابن الفقيه الى أن بعض اسماء موالي الخليفة وقواده مقترنة بلقب التركي . مثل مبارك التركي وبشار التركي ، وشاكر القائد التركي ، وفرج الخادم التركي ...الخ .

وجاء في رواية خليفة بن خياط أن جند الترك في الجيش العباسي قاموا بدور مهم في القضاء على الخوارج الذين ثاروا بقيادة عبد السلام اليشكري في خلافة المهدي ، كما أكد الجاحظ ايضا دور الترك في قتال الوليد الشاري الذي خرج على الخليفة هارون الرشيد في اقليم الجزيرة ، وهناك اعداد اخرى من الترك وفدت على بغداد في خلافة المأمون الذي كان يرتب رسل الى بلاد الترك للتبشير بالاسلام ويرسل معهم فارضا يسجل اسماء الاتراك وبفرض لهم العطاء ويسهل أمر قدومهم الى مركز الخلافة .
ويعد المعتصم بالله أول من استكثر من استخدام الاتراك في الجيش والبلاط ، فقد روى اليعقوبي أنه استقدم قوما من بخارى وسمرقند و فرغانة واشروسنة وغيرها حتى بلغوا ثمانية عشر الفا ، البسهم ملابس من الديباج عليها مناطق ذهبية ثم أزداد عددهم حتى بلغوا عشرات الألوف ، وتجدر الاشارة الى أن جيش المعتصم كان يضم فرق اخرى من الاتراك كالعرب المغاربة والخراسانية الفرس والابناء والمولدين .

أما عن الاسباب التي دفعت المعتصم الى الاعتماد على الاتراك والاكثار منهم فضلا عن أمه تركية ، فيذهب ببعض المؤرخون الى القول أن المعتصم حاول بذلك معالجة اختلال التوازن بعد تدهور العلاقة بين العباسيين والخراسانية ، في اعقاب عودة المأمون الى بغداد . وما لاحق ذلك في القضاء على نفوذ بني سهل فلجأ الى عنصر جديد ليجعل منه الركن العسكري للدولة .

ويضيف اخرون أن المعتصم استعان بالترك وأكثر منهم في جيشه بعد أن لاحظ تأييد الفرس للعباس بن المأمون ومحبة رجال الجيش له ، ويجعل نوع من الموازنة بين عناصر الجند المختلفة، وقد سبق لهؤلاء أن أظهروا تأييدهم للعباس وعارضوا خلافة المعتصم ، هذا فضلا عن الشخصيات العربية التي ابدت معارضتها لسياسة الاكثار من العناصر التركية .

موقف المعتصم من العلويين :

لم تكن علاقة المعتصم بالعلويين كما كان عليه الحال في عهد المأمون الذي حاول أسترضائهم واظهر الاستعداد للتفاهم معهم ، فقد أتهم المؤرخين المعتصم بأنه وراء وفاة محمد الجواد بن علي الرضا الذي توفي بعد وصوله بغداد سنة 219هـ (6) .
أمر المأمون عامله في المدينة أن يحمل اليه الامام محمد الجواد (عليه السلام) مع عياله الى بغداد فوصل الأمام بغداد وأقام فيها بقية عمره الشريف تحت رقابة السلطة وكان حضوره عام 204هـ فزوجه المأمون من ابنته ام الفضل عام 215هـ وكانت لهذا الزواج دوافع كثيرة أما استشهاد الأمام فيروى أن جعفر ابن المأمون قد اتصل بأخته أم الفضل وكان يبغض الأمام الجواد (عليه السلام) وكانت أم الفضل تغار من زوجة الأمام الاخرى أم

الهادي (عليه السلام) فأستغلوا هذا الأمر واتفقوا معها على سم الأمام بمعرفة ومشورة المعتصم في عام 220 هـ .

ويبدو أن وفاة الامام محمد الجواد قد اثار خوف رجال العلويين من التعرض لمثل ما تعرض له محمد الجواد ، فروى أن محمد بن القاسم كان يقيم بالكوفة فخاف على نفسه ورحل الى خراسان فنزل مرو ثم سرخس والطالقان وايبود ، فأنضم اليه كثير من أهل البلدان ، وحارب جيوش المعتصم ، ثم وقع اخيرا في يد عبد الله بن طاهر بن الحسن ، فحمله الى المعتصم فأمر بسجنه في سامراء ، وقد اختلفت الروايات حول مصيره ، فقيل أنه مات مسموما وقيل أن بعض اتباعه اخرجوه من السجن ، وذهبوا به الى مكان ما ، في حين يرى اخرون أن المعتصم حبسه في قصره فهرب ليلة الفطر سنة 219 هـ فطاردوه فلم يقدروا عليه.

حركة المازيار :

كان المأمون قد عين المازيار (محمد بن قارن بن بندار هرمز) واليا على ولاية طبرستان ورويان ودبناوند . فعمل المازيار على توطيد نفوذه هناك ثم لم يلبث أن تطلع الى الاستقلال عن الخلافة العباسية ، وتذهب الروايات التاريخية الى القول أن الافشين (حيدر بن كاووس) كان له دور في تحريض المازيار على العصيان معتقدا بأن عبد الله بن طاهر بن الحسين والي خراسان سوف لن يتمكن من القضاء على المازيار فيضطر الخليفة المعتصم الى توليه امارة المشرق بدلا من عبد الله بن
طاهر .

ووصفه البغدادي بأنه خرمي من المحمرة كما اشار البلاذري اليه فقد قال (أنه كفر وغدر) .

وقد تأكدت نزعة المازيار الخرمية عندما اغرى الفلاحين بقتل ارباب الضياع قائلا لهم : (أني قد ابحتكم منازل ارباب الضياع وحرمهم . فأقتلوا ارباب الضياع جميعهم قبل ذلك ثم حوزوا ما وهبت لكم من المنازل والحرم) .

وقد قام عامله على منطقة (ساري) بناء على اقتراحه بجمع مائتين وستين من ابناء القادة وسلمهم الى الفلاحين ليقتلوهم بأعتبار أن وجودهم يشكل خطرا عليهم .

وقد تصدى الطارهيون في خراسان لحركة المازيار وتمكن عبد الله بن طاهر بالتعاون مع الجيوش العباسية التي بعثها الخليفة المعتصم بالله بقيادة محمد بن ابراهيم من الحاق الهزيمة بالمازيار الذي اضطر الى تسليم نفسه ، فأرسل الى سامراء ، فضرب اربعمائة سوط حتى مات وصلب الى جانب بابك الخرمي في سنة 224هـ .

وهناك مشاكل اخرى واجهت المعتصم في مناطق مختلفة من الدولة كحركة جعفر بن مهرجش الكردي بين الموصل واذربيجان وأرمينية وقد تمكن المعتصم من اخماد هذه الحركة ، كما شهدت فلسطين حركة قام بها المبرقع اليماني الذي ألبس وجهه برقعا لئلا يعرف . وكان يدعو الى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فكثر اتباعه وأنضم اليه عدد من رؤساء اليمانية وجماعة من أهل دمشق ، فأرسل المعتصم اليه جيشا نجح في أسر المبرقع وحمله الى سامراء حيث سجن هناك .

كما واجه المعتصم ايضا حركة خطيرة بدمشق اسفرت عن طرد الوالي العباسي عن المدينة ، فبادر الى توجيه قواته الى الشام وتمكن من القضاء على هذه الحركة التي ذهب ضحيتها عدد كبير من أهالي دمشق .

حركة الزط :

في سنة 219هـ ظهر (الزط) بالبطائح بين البصرة وواسط ، وينتمي الزط الى احدى القبائل الهندية ، و بدؤوا يشكلون خطرا على الدولة العباسية بعد أن قاموا بقطع الطرق وفرض المكوس الجائرة على السفن ، كما حالوا دون وصول المؤن الى بغداد ، فجرد المعتصم جيشا بقيادة احمد بن سعيد بن سليم بن قتيبة الباهلي ، الا أنه أنهزم امام الزط ، فعهد المعتصم الى عجيف بن عنبسة القضاء عليهم فأرغمهم على طلب الأمان (2) فامر الخليفة المعتصم بنفيهم الى اسيا الصغرى ثم تولوا على حدود صقلية حيث تعرضوا لهجوم البيزنطيين .

القضاء على الافشين :

لم يكن المعتصم بالله ينتهي من اخماد المازيار حتى تفرغ لقائده الافشين (حيدر بن كاووس) الذي ينتمي الى اسرة أمراء اشروسونة من بلاد ما وراء النهر . وكان الافشين قد اتهم بأنه وراء عصيان المازيار ، ثم ثبت ذلك من خلال رسائل الافشين نفسه الى المازيار . ويبدو أن الافشين هذا كان يتطلع الى الانفصال عن جسد الدولة العباسية متوسلا في ذلك ضرب الاتراك والعرب وهم قواد جيش المعتصم وتكوين أمارة مستقلة في منطقة بلاد ما وراء النهر على غرار الأمارة الطاهرية في خراسان ، علما أن هذه الأخيرة قامت بأمر الخليفة المأمون حيث ولى طاهر بن الحسين المشرق سنة 205هـ .

وقد حافظ الافشين على صلته بأهالي اشروسنة واكتشف عبد الله بن طاهر هذه العلاقة عندما لاحظ أن الافشين هذا حرص خلال الايام الاخيرة من حرب بابك الخرمي على أرسال ما يتجمع لديه من الاموال والذخائر الى موطنه الاصلي اشروسة ، فكتب الى الخليفة المعتصم بذلك ، فأرسل اليه يأمره (بتعريف جميع ما يوجه به الافشين من الهدايا الى اشروسنة) .

ويبدو أن الافشين شعر بشكوك المعتصم ومراقبته له ، فحاول الهرب الى اشروسة الا أنه لم يتمكن من ذلك ، وروى الطبري أن الافشين فكر في عمل وليمة للمعتصم ولقواده ليدس لهم السم في الطعام ثم يهرب بعدها الى بلاده (ويستميل الخزر الى الاسلام) الا أن مؤامرته هذه لم يكتب لها النجاح فقد علم المعتصم بما يدبره الافشين فأمر بالقبض عليه وسجنه في شهر ذي القعدة من سنة 225هـ لم يلبث أن توفي في السنة التالية .

العلاقات مع البيزنطيين.

تعرضت منطقة الثغور الاسلامية الى سلسلة من الهجمات البيزنطية خلال انشغال المعتصم باخماد حركة بابك الخرمي ، فقام تيوفيل بمهاجمة منطقة ارمينية وقتل عددا كبيرا من سكانها ، كما أسر العوائل الأرمينية هناك ، ثم ما لبث أن عاد في السنة التالية الى اجتياز الحدود سنة 222هـ استجابة لنداء بابك الخرمي الذي كان يعاني انذاك من مضايقة الجيوش العباسية التي احدقت به في كل جانب ، فنزل تيوفيل على مدينة زبطرة وأرتكب الفضائع فيها وقتل رجالها وسبى الذراري ، ثم تقدم نحو سيماط فتم له اقتحامها بعد أن تغلب على القوة التي حاولت انقاذها وواصل تقدمه الى ملطية فأكتفى بأخذ الرهائن والاموال ولم يدخل المدينة ، ويبدو أنه توقع وصول الجيوش العباسية فأستعد للقائها ، وضج الناس في الامصار ، واستغاثوا في المساجد والديار ودخل ابراهيم بن المهدي على المعتصم فأنشده قصيدة طويلة ذكر فيها ما لحق المسلمين ويحثه على الجهاد ، فراعه ما حدث وأرسل على وجه السرعة قوة من الجيش بقيادة عجيف بن عنبسة أمره بالتوجه الى زبطرة ، وانصرف الى اعداد حملة كبيرة ونادى بالنفير العام في الثاني من شهر جمادي الأولى سنة 223هـ (و تعمم بعمامة الغزاة) وعسكر غربي دجلة ونصبت الاعلام على الجسر (ونودي في الامصار بالنفير ... فأرسلت اليه العساكر والمطوعة من سائر بلاد الاسلام) وروى الطبري أن المعتصم تجهز (جهازا لم يتجهز مثله خليفة قط من السلاح والعدة والعدد والات وحياض الادم والروايا والقرب والبغال والدروع والجواشن والزرديات والات النار والنفط) . وقدر المؤرخون جيش المعتصم ما بين مائتي الف وخمسمائة الف والتقت طليعة جيش المعتصم بقوات الروم بظاهر انقرة فأنزلت بها هزيمة نكراء ، ودخل المسلمون انقرة فأمر تيوفيل بتركيز الدفاع عن عمورية فحشد قوات ضخمة عهد بقيادتها الى (باطس) – خال تيوفيل – وروى الطبري أن المعتصم اراد أن يوجه ضربة قاصمة الى الروم فسأل : (أي بلاد الروم امناً واحصن ؟ فقيل : عمورية لم يعرض لها احد من المسلمين منذ كان الاسلام وهي اشرف عندهم من القسطنطينية) (3) . فزحف المعتصم نحوها ، وكانت مقاومة الروم عنيفة فحاصرها حصارا شديدا ، ثم نحج المسلمون في اقتحام المدينة عنوة يوم الثلاثاء

السابع عشر من شهر رمضان من سنة 223هـ ، واخذوا (ياطس) اسيرا ، ودمروا جميع الحصون والمعاقل البيزنطية في المنطقة .

وكان يتوفيل قد أرسل قبل سقوط عمورية هدايا الى المعتصم مع رسالة يتعذر فيها عن المذابح الفظيعة التي ارتكبها الروم في زبطرة ، وابدى استعداده لبناء المدينة واعادة من سبي من اهلها ، واطلاق سراح جميع الاسرى ، على أن يتم عقد الصلح بين الطرفين الا أن المعتصم رفض مقابلة الوفد حتى سقطت عمورية ، ولم تسفر المفاوضات بعد ذلك عن شيء .

وقد كان للأنتصار المسلمين على الروم في عمورية صدى كبير في جميع ارجاء الدولة العربية الاسلامية اعادت الى الاذهان الانتصارات الكبرى التي حققها ونظموا القصائد في مدح الخليفة المعتصم بالله ، ومن اشهر ما قيل في هذه المناسبة قول ابي تمام :

السيف اصدق انباء من الكتب — في حد الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح اسود الصحائف — في متونهن جلاء الشك والريب
والعلم في شهب الارماح لامعة — بين الخمسين لا في السبعة الشهب
فتح الفتوح تعالى أن يحيط به — نظم من الشعر او نثر من الخطب
فتح تفتح ابواب السماء له — وتبرز الارض في اثوابها القشب
يا يوم وقعة عمورية انصرفت — منك المنى حفلا معولة الحلب

ويروي المؤرخون أن المعتصم كان ينوي المضي قدما في بلاد الروم وافتتاح القسطنطينة والنزول على خليجها والعمل على فتحها برا وبحرا الا أنه اضطر للتوقف والعودة الى مركز الخلافة بعد أن علم بوجود حركة تستهدف القضاء عليه ومبايعة العباس بن المأمون مدبرها عجيف بن عنبسة وعدد من القادة من العرب وبعض الاتراك فتم القاء القبض عليهم .

على أن المناوشات بين المسلمين والبيزنطيين لم تتوقف حتى سنة 226 هـ حيث ارسل الامبراطور تيوافيل هدايا الى الخليفة المعتصم واقترح عليه تبادل الاسرى، فتم عقد الهدنة بين الطرفين .